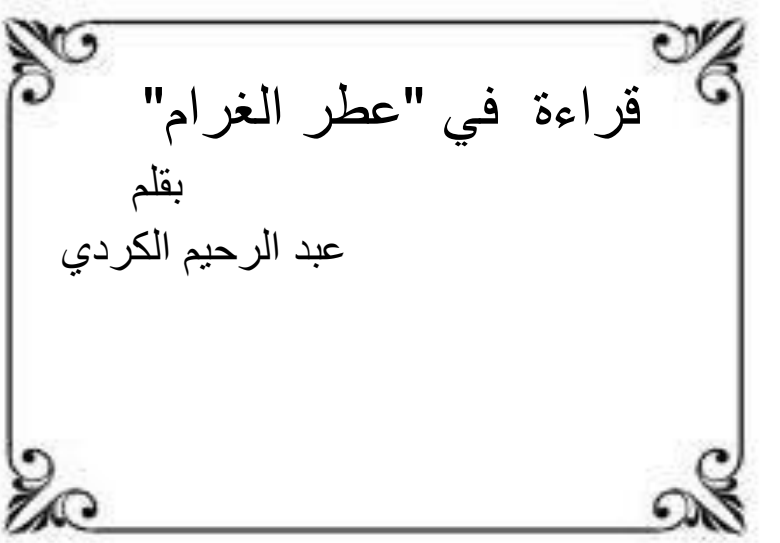

قراءة في "عطر الغرام"

بقلم

عبد الرحيم الكردي

"عطر الغرام" رواية جديدة للكاتب المصري المبدع محمد العون ،وهي الراوية السادسة في سلسلة إنتاجه الروائي، نشرت في العام الماضي ٢٠١٥ ، وهي تتخذ شكل السيرة الذاتية التي تروى بضمير المتكلم ، وتلقي الضوء على مرحلة من حياة الراوي هي الفترة الجامعية منذ دخوله الجامعة حتى تخرجه فيها ، وترسم صورة لما كان يدور في الجامعة من مغامرات عاطفية وسياسية ،وما يعانيه الشباب في هذه الفترة من مشكلات نفسية واجتماعية وثقافية .

الحكاية

تبدأ أحداث الرواية بمشهد يصور فيه الراوي أول لقاء له بزميلته ياسمين أثناء رحلة طلابية إلى الفيوم ، وذلك في الأيام الأولى من بداية الدراسة بالفرقة الأولى بإحدى الكليات العملية ، فلم تثر الفتاة انتباهه أول الأمر، لأنها كانت بالنسبة له عادية ، أو " لا بأس بها" ، ولأن صورتها لم تكن تتطابق مع نموذج الفتاة الذي كان يحلم به ،فهو كان يميل إلى

الشقراوات ويحلم بفتاة زرقاء العينين ذات شعر ذهبي طويل وجسد يتفجر بالأنوثة [1] أما هي فـ" إنها جميلة بلا شك . لكن جمالها ذو طبيعة خاصة ، خافت ناعم ، لا يلفت النظر ولآ يثير الاهتمام من الوهلة الأولى ، لم يكن هذا النوع من الجمال يستهويه وقتها ،لكن بدأت علاقته بها تتطور ، بعدما علم أنها تسكن في حي مصر الجديدة الذي يسكن هو فيه ، وبعدما اشترك في سيارة الجامعة التي تركب فيها ياسمين كل يوم ، ثم تحول انتظارهما لسيارة الجامعة بجوار شجرة الفيكس في الميدان إلى لقاء شبه يومي بينهما،وهنا حدث الحب ، يقول :" فلأول مرة كنت أتذوق طعم الحب ، وأعرف كيف يمكن لفتاة أن تستحوذ عليك فلا تكف عن التفكير فيها"[2] هناك شيء في روحها جذبه إليها ، ليس جمالها ولا شكلها وإنما روحها ، ويتطور الحب إلى درجة الغيرة .

وبسبب هذه الغيرة بدأ الشك ، ومع الشك تنهار الثقة ،رآها مرة تسير مع زميل لهما في حديقة الجامعة وحدهما ، فلم يطق أن يشاركه أحد ولم يلتمس لها عذرًا ، فبدأ بالقطيعة ، وأبى لها كبرياؤها أن تبدأ الوصال ، فأخذ الشرخ يزداد اتساعًا كل يوم حتى فوجئ بخاتم الخطوبة في يدها ، ثم بزواجها .

من جانبه حاول أن يعوض خيبته في حب ياسمين عن طريق إقامة علاقة بزميلته الأخرى فريدة التي كانت تتحلى بنفس المواصفات الجسدية التي كان يحلم بها في بداية حياته ، لكن فريدة كانت جسدًا جميلًا بلا روح ، ومن ثم فشل في علاقته بها أيضًا ، لأن حب ياسمين كان قد تغلغل في قلبه ولم يترك مساحة لأي حب آخر.

العنوان

عنوان الرواية " عطر الغرام" مثل سائر عناوين روايات العون مكون من كلمتين ، الأولى كلمة " عطر " وتعرب مضافًا والثانية كلمة " الغرام" وتعرب مضافًا إليه ، والكلمتان في جميع العناوين إما خبر لمبتدأ محذوف ، وإما مبتدأ لخبر محذوف ، هذا التركيب اللغوي لم يتخل عنه

---

[1] محمد العون ،عطر الغرام ذالحضارة للنشر ٢٠١٥ ص ١٠
[2] السابق ص ٢٨

محمد العون في أي عنوان من عناوين رواياته [1] ، مما يدل على أن هذا الشكل التركيبي لازمة من لوازمه التعبيرية تنم عن إيقاع ثنائي خاص سوف نجد صداه في لغته بل في البناء السردي للرواية بشكل عام .

والحديث عن العطر الذي ورد في العنوان مذكور في صلب الرواية مرتين ، المرة الأولى عندما وصلت العلاقة العاطفية للراوي / البطل بزميلته ياسمين إلى ذروتها ، ففي هذا الموضع يقول :" فتحت حقيبتها الجلدية الأنيقة، مدت يدها في الحقيبة الصغيرة وقلبت فيها للحظات لمحت رغمًا عني زجاجة عطر باريسية سوداء بغطاء ذهبي ، ستبقى رائحة هذا العطر الجميلة في ذاكرتي ولن أنساه أبدًا"[2] والمرة الثانية التي يذكر فيها العطرعندما وصلت علاقته العاطفية بزميلته الأخرى فريدة ذروة برودها ، ويقول في هذا الموضع :" كانت قد فتحت حقيبة يدها وهي ترتب أشياءها ، لمحت زجاجة عطر سوداء بغطاء ذهبي وهي تقبع داخلها ! نفس النوع الذي تستعمله ياسمين ، ربما كان هذا العطر هو الشيء الوحيد الذي يجمع بينهما "[3] .

وهذا يكشف عن المستوى الأول من العلاقة الرمزية بين العنوان والنص الروائي ، وهو مستوى إشاري مباشر، لأن كلمة العطر فية تشير مباشرة إلى شيء مادي يخص الحبيب باعتباره ذكرى لا تنسى، مثل منديل الحبيب أو بيته أو المشط الذي كان يسرح به أو غير ذلك ، يعضد هذا المستوى ذكر كلمة الغرام بجوار كلمة العطر في العنوان ، وكون صاحبتي زجاجتي العطر المذكورتين في النص معشوقتين للراوي / البطل ، فعطر الغرام هنا تشبه قولنا : منديل الحب أو بيت الحب .. وهكذا .

هناك مستوى آخرمن تأويل العلاقة بين العنوان والنص ،وهو أن كلمة العطر تفسرعلى أنها ياسمين نفسها ، فكلمة ياسمين هي نفسها نوع من الزهور العطرية فكأنه يريد بالعنوان رائحة ياسمين التي لا تنسى .

أما المستوى الثالث الأكثر عمقًا وشاعرية فهو أن كلمة العطر الواردة في العنوان تعبر عن مجرد الذكرى ،ذكرى تجربة الحب الممتعة

---

[1] عناوين روايات محمد العون : مصير بيكاسو، مولانا، ليلة التحرير، مراكب الليل ، سجن الطاووس .

[2] محمد العون ،عطر الغرام ، الحضارة للنشر ٢٠١٥ ص ٥٠

[3] السابق ص ١٧٧

وفي الوقت نفسه المؤلمة ، ومما يرجح هذا المستوى من التأويل أن الكاتب اختار كلمة " الغرام"من بين الكلمات الكثيرة الدالة على الحب في اللغة العربية [1] وهي كلمة ترتبط بديمومة العذاب في قول الله تعالى: " إن عذابها كان غراما"(٦٥ الفرقان).

بهذا المستوى العميق يتحقق في الرواية ما يمكن تسميته بـ"شعرية الرائحة" على غرار شعرية المكان وشعرية الزمان ، فكلمة العطر في هذه الحالة لا تدل على تلك المادة الفواحة المخزونة في زجاجة سوداء ذات غطاء ذهبى تمسك بها المحبوبة ،ولا تدل على الرائحة المنبعثة من هذه المادة ، بل تتجاوز ذلك لتدل على مجرد الذكرى العطرة لتجربة حلوة زالت معالمها المادية وبقيت آثارها النفسية، ومن ثم يصبح ذكر زجاجتي العطر الحقيقيتين في الرواية مجرد خدعة بلاغية أو غلالة جمالية تشبه المعنى المباشر الذي يؤخر المعنى المراد في التورية ، ويصبح العنوان مطابقًا لمضمون النص الروائي ، لأن الرواية كلها عبارة عن صياغة سردية لتجربة وجدانية.

الصورة

صياغة سردية محكمة لتجربة وجدانية واحدة ،تشبه تجارب الشعراء الوجدانيين ، فذكريات الماضي عندما تنبعث رائحتها وتستدعى إلى الذهن الأشياء التي كانت مرتبطة بالأحباب تأتي ممزوجة بأسى الفراق،فهي تشبه المرارة التي يحس به المحب عندما يفوته قطار الزمن فيقف على الرصيف مسترجعًا ما دار بينه وبين الحبيب الذي غادر لتوه ولن يعود ، تلك التجربة هي التي سجلها امرؤ القيس في معلقته عندما وقف باكيًا ومستبكيًا على أطلال أحبته ، وهي التجربة نفسها التي سجلها إبراهيم ناجي في الأطلال ، وسجلها كل عشاق الشعراء بطرقهم الخاصة .

إنها ليست تسجيلًا لأحداث لها حكاية بل صياغة خاصة لتجربة حب ضائع صيغت سردًا شعريًا من أشلاء حياة، ولذلك فإن محمد العون يصدر الرواية بعبارة يقول فيها :" إلى الذين يقرأون بقلوبهم ومشاعرهم والذين عرفوا الحب الأول " نعم تشغل أحداث الرواية حيزًا زمانيا ومكانيًا ، إذ تبدأ أحداثها بدخول الراوي الجامعة في مدينة القاهرة في الفرقة الأولى

[1] توجد في اللغة العربية ثلاث وعشرون كلمة تفيد معنى الحب

وتعرفه مصادفة على زميلته ياسمين ، ثم زميلتـه الأخـرى فريـدة وتنتهـي بتخرجه من الجامعـة عنـدما أصـبحت ياسـمين زوجـة وأمًـا ، لكـن الروايـة عبارة عن صورة شعرية ، الراوي فيهـا يسـتخدم ضـمير المـتكلم ويسـتخدم تقنيات السيرة الذاتية، لكنه لا يؤرخ لما حدث له تأريخًا عقلانيًـا أو فكريًـا ، بل يستخدم جزئيات هذا الواقـع ليصـوغ منهـا صـورة وجدانيـة موحيـة أو مشاهد متحركة تشبه اللوحة الفنية ، فهي تشبه القارورة المهشمة التي صنع فنان محترف من شظايا زجاجها لوحة فنية معبرة ، فالمشاهد لها يسـتطيع أن يتخيل الصورة التي كانت عليها عندما كانت قـارورة تسـتخدم فـي حفظ الماء، لكنها في وضعها الحالي أكثـر جمـالًا وتعبيـرًا عـن الصـفاء وعذوبـة الماء من القارورة الأصلية نفسها .

الراوي .

في هذه الرواية تبـرز صـورة الـراوي (أنـا) باعتبـاره محـورًا لكـل أحداث الرواية ، فالرواية كلها موظفـة لإبـراز هـذه الـذات ورسـم ملامحهـا الخارجية والداخلية ، وما دونهـا مـن الشخصـيات والأشـياء يوظـف لإبـراز صورة هذا الـراوي، لكـن (أنـا) هـذه اثنـان وليسـت واحـدًا، الأول (أنـا) السارد الذي يحكي الآن ، والآخر (أنا) الطالب الشاب العاشق الذي كان في الماضـي يمارس الحيـاة فـي الجامعـة وخارجهـا ، (أنـا)الأول عاقـل واقعـي متأمل وحكيم،أما (أنا)الآخر فرومانسي حالم غـر قليـل الخبـرة ، والاثنـان معًا يشتركان في السرد بضمير المتكلم ، مما يجعل زمن السـرد " الآن " ذا ثلاث مستويات : مستوى زمان الأحداث ، ومستوى زمان القول ، ومستوى زمان القراءة .

ولكل راو من الراويين وظيفته ، فوظيفة (أنـا)الآخـر الرومانسـي تتعلق بالإخبار والبوح ،أما وظيفة أنا الـواقعي فتتـولى التفسـير و التعليـق و السـخرية مـن أنـا الآخـر و مـن الشخصـيات الأخـرى أو تتـولى نقد الواقـع الاجتمـاعي والسياسـي والإنسـاني برمتـه ، (أنـا) الثانيـة الشـابة مبتهجـة ومتفائلة ومقبلة على الحياة رغم مـا فيهـا مـن آلام، و(أنـا) الراشـدة تكتنـف عينيها غلالة من الحزن والملل والحسـرة علـى الماضـي ، كأنهـا تقـول مـع الشاعر العربي :" رب يوم بكيت فيه فلما *** صرت في غيره بكيت عليـه " والراوي/ السارد ليس رومانسيًا / فهو يـدين تصـرفات الـراوي/ البطـل ،

فهو يقول عنها مرة :" أفكار صبيانية بالطبع"[1] ومرة أخرى :" كان من الصعب على عقولنا الشابة إيجاد تفسير لها"[2] ويقول : " الكلمات البلهاء التي لا تقدم ولا تؤخر"[3] " أعماني الغضب"[4] .

لعبة السرد.

تبدأ أول غرزة في السرد بعدم انجذاب الراوي لياسمين، وإحساسه بحياد مشاعره تجاهها ، لأنها لا تتفق مع صورة الفتاة التي يحلم بها[5]، هذا الإجراء السردي يشبه شد الوتر إلى الخلف قبل أن يندفع بالسهم السردي إلى الأمام بقوة نحو الحب الجارف، فهويشبه تراجع من يريد أن يقفز إلى الأمام عدة خطوات، وهي تقنية سردية تقليدية معروفة في التراث العربي ، فولادة البطل في القصص الشعبي غالبًا ما تكون مصحوبة ببعض المظاهر التي تبعد الذهن عن تصور احتمال البطولة، كأن يشكك الراوي في نسب الطفل الذي سوف يصبح بطلًا ، أو يشاع كذبًا أن أصله كان وضيعًا أو تصدر منه أفعال لا تليق بالبطولة ، وهذه الخطوات المتراجعة للخلف قد تقوى ببعض الأحداث ، بما يشبه الترشيح في الاستعارة لكن عن طريق السرد، وقد يكون بجوارها بعض العلامات التي تؤيد بواكير خيوط الانقلاب والتحول من الإعراض إلى الانجذاب والحب ، وهو ما يشبه تقنية التجريد في الاستعارة أيضًا .

فمن مقاطع الترشيح السردي في المشهد السابق أن الكاتب لا يجعل البطل يهتم بالبطلة ، بل يهتم بها صديق له اسمه عبد الله ، وأن البطل يتدخل فقط ليساعد صديقه عبدالله في التعرف عليها ، أما مقاطع التجريد فتتمثل في أن الراوي اكتشف أن ياسمين تسكن في نفس الحي الذي يسكن فيه،وأنه كان يشعر أنها كانت تقترب منه أكثر من اقترابها من عبدالله .

وبمرور الوقت أخذت عناصر التجريد تتضخم بينما أخذت عناصر الترشيح تتضاءل ، مثل اقتراب المسكن ، والمشاركة في وسيلة المواصلات

[1] عطر الغرام ص ١١
[2] السابق ص ٣٤
[3] السابق ص ٤٣
[4] السابق ص ٦٣
[5] السابق ص١٠

، وهذا ما يجعل التطور في الأحداث مبررًا ، رغم المفاجآت ورغم الرومانسية المفرطة لدى الراوي /البطل .

هناك تقنية سردية أخرى يستخدها الكاتب وهي الانحراف بالشخصية عن الخط السوي الواقعي ، وجعل الشخصية تتصرف بطريقة غير واقعية من وجهة نظر الراوي/ السارد.ومن زاوية القارئ أيضًا ، مع وجود علامات على اقتناع الشخصية غير السوية نفسها بأن ما تفعله هو الصواب والواقعي ، وهذا الإجراء السردي ورثته الرواية العالمية من سرفانتس في روايته المشهورة "دون كيشوت" ، فلقد تصرف الراوي/البطل تصرفًا دونكيشوتيًا عندما قطع علاقته بياسمين لمجرد أنه رأى زميلاً يقف معها ، وتصرف تصرفًا دون كيشوتيًا عندما لم يفهم ما تريده فريدة ، إن الصراع في هذه الرواية وفي دون كشوت وفي كل الروايات يحتدم بين الواقع وبين ما يظن الإنسان أنه هو الواقع ، وفي الحقيقة أن ما يعتقده الناس أنه هو الواقع هو أيضًا مجرد ظن يمكن أن يغيره الزمن ، فينظر إليه من قبل أناس آخرين على أنه غير واقعي وهكذا.

ومن التقنيات السردية في الرواية الإيقاع الثنائي وهو عبارة عن تكرار الصورة مع اختلاف المحتوى ، أو تكرار المحتوى مع اختلاف الصورة بشكل فني منتظم، فثنائية العنوان الذي أشرنا إليه سابقًا تتوازى مع ثنائيات كثيرة في الرواية ، مثل صوت الراوي المزدوج ، والموجود في زمانين مختلفين ، زمن الأحداث وزمن السرد ، وهو يشبه الإنسان وصورته في المرآة، وصورة ياسمين في مقابل صورة فريدة ، فالصورتان تشبهان الأصل والصورة ، وصورة الغزل الحيواني الفاضح بين قطيع ذكورالكلاب وإناثها كما صوره الراوي في حديقة الكلية تقابل صورة الغزل الإنساني بين الطلاب والطالبات ، فكلاهما رغم تفاهته سبب في استمرار الحياة ، إن التقابل والتشابه يلازم أسلوب الكاتب من أول الرواية حتى آخرها ، بل إنه يختم الرواية بهذا المقطع الذي لا يسترجع فيه ذكرى ثنائية بين الماضي والحاضر فقط ، بل يتخيل صورة ثنائية يمكن أن تكون بين الحاضر والمستقبل ، يقول:" وأنا أطالع إحدى المجلات استوقفني موضوع ، لفت نظري بشدة ، صورتان متقابلتان ، الأولى أبيض في أسود مكتوب تحتها تاريخ يعود إلى خمسين سنة مضت،والثانية حديثة ملونة، في الأولى يقف شاب وسيم في غاية الأناقة وبجواره فتاة رائعة الجمال ، وهو

يمسك يدها ويبتسمان للكاميرا ، كانا في شهر العسل ، والصورة الملونة لرجل طاعن في السن وبجواره سيدة عجوز وجهها مغطى بالتجاعيد ، وهما نفسهما الفتى والفتاة الشابان ، يقفان نفس الوقفة وفي نفس المكان بعد مرور خمسين عامًا على زواجهما !

يااه ما أشد قسوة الزمن ! تخيلت نفسي مع فريدة في الصورة الأولى ، تقريبًا كانا في بدايات عشرينياتهما ..عمرنا الآن ، هذا ما ينتظرنا في النهاية "[1]

[1] السابق ص ٢١٠